

النظام المدرسي، الشهادة الجامعية والمراتبية الإجتماعية: قراءة سوسولوجية في العلاقة داخل
الفضاءات الإجتماعية الحديثة

**The school system, certificate and social stratification
A sociological analysis in the modern social formations**

بوريدان عبد القادر*

¹ جامعة الجزائر 2 (الجزائر) abdelkader.bouridane@unive-alger2.dz

Abdelkader Bouridane

University of Algies 2, (Algeria)

تاريخ الاستلام: 2021/05/06 تاريخ القبول: 2021/07/25 تاريخ النشر: 2021/10/25

ملخص: يحاول الباحث في هذه الورقة استجلاء المعالم الكبرى ونقاط الإنعطاف الإجتماعية في الصيرورة الإجتماعية التاريخية المنتجة للمراتبيات والهرميات الإجتماعية. تجلت هذه الإنعطافات على عدة مستويات محورية في الفضاءات الإجتماعية والمنطق الداخلي الذي يحكمها. إذ عرفت هذه الفضاءات تحلل البنى الإجتماعية التقليدية و نشوء صيرورات وتركيبات اجتماعية جديدة تحكمها الحرية والمساواة في شروط الوجود الإجتماعي للأفراد وكذا بروز الدولة ومسار عقلنة الحياة الإجتماعية . ومن بين أهم المؤسسات الإجتماعية في هذه الصيرورة النظام المدرسي و ما يجسده من تكريس لمبدأ الإستحقاق وما ينتجه من شهادات تكتسي طابع الشرعية في الإنتقال والتموقع في تقسيم العمل والهرميات المهنية الطبقية فضعف وزن العوامل المورثة وزاد تأثير العوامل المكتسبة (خاصة الشهادات) و أصبح المبدأ الذي تقوم عليه المراتبية الإجتماعية هو الإنجاز achievement وليس النسب ascription . انعكست هذه التحولات على مستوى الحراك الإجتماعي: فمن خلال هذه الصيرورات أصبحت حركيات الأفراد بين مختلف المواقع الإجتماعية سائلة وليست جامدة أفرزت بدورها صورة جديدة عن تمثّل الأفراد للمجتمع ذاته.

الكلمات المفتاحية: المراتبية الإجتماعية، النظام المدرسي، الشهادة الجامعية، الإستحقاق، الحراك الإجتماعي

Abstract: In this paper, the researcher tries to uncover the major milestones and social turning points in the socio-historical processes that produces social stratification and hierarchies and the role of the education system. These social turns manifested themselves on several pivotal levels in the social spaces and the internal logic that governs them. Those spaces knew the dissolution of traditional social structures and the emergence of new social processes and structures governed by freedom and equality in the conditions of social existence of individuals, as well as the emergence of the Nation-State and the progression of rationalizing social life. Among the most important social institutions in this process is education systems and what it represents in establishing the principle of merit and the production of legitimate diploma in the occupation of position in the division of labor and the class-professional hierarchies. As a consequence The weakening of inherited factors and the increasing of acquired factors (certificates): the principle of Social stratification is achievement, not ascription. These transformations were reflected in social mobility: through these processes, the movements of individuals between different social positions became fluid and not static, which produced a new representation of the society inside social agents.

Keywords: Social stratification, Education system, University diploma, Merit, Social mobility.

إن عملية التأمل لوتيرة التزايد المتصاعد لأعداد الطلبة على مستوى المؤسسات التعليمية العالي (106 مؤسسة جامعية و 1730000 طالب جامعي في احصائيات 2018) وكذا نسب البطالة المرتفعة لدى الخريجين منها (14.5 بالمئة من نسبة البطالة سنة 2015 : احصائيات الديوان الوطني للإحصائيات) إضافة إلى عمل فئة هامة منهم في مواقع هرمية مهنية لا تتناسب مع مؤهلاتهم تدعو إلى استفهام الإثر المباشر أو غير المباشر على مستوى: العلاقة بين عملية التكوين ومالاتها الفردية والجمعية؛ قيمة الشهادة وندرتها والإفاق التي تفتحتها على مستوى سوق العمل؛ المهرميات المهنية التي تندرج بداخلها هذه الإفاق بناء على العلاقة المؤسسة اجتماعيا التي تربط النظام المدرسي بتقسيم العمل وبالتالي بنظام التوزيع في الدرجات والرتب الاجتماعية المكونة للمراتبية الاجتماعية. على مستوى آخر تشكل هذه التركيبة رهانا أساسيا على مستوى التمثيلات الاجتماعية والرهانات الفردية والجماعية لأبعاد محورية في دور ووظيفة الشهادة كأداة شرعية وكتكريس مأسس لمبدأ الإستحقاق والعدالة الاجتماعية التي وجد من أجلها النظام المدرسي إذ تأخذ أشكال الوجود الاجتماعي تظهر على المستوى السيكوسولوجي في شكل تمثيلات اجتماعية *representations sociales* وهي بناءات ذهنية (أي نشاط ذهني لأستحضار الغائب من الأحداث أو الأشياء على شكل صورة) اجتماعية مؤسّسة انطلاقا من الأنساق القيمة والإبعاد الموضوعية للوسط الاجتماعي. تشكل أداة توجيه إدراكية للمواقف وإنشاء الإجابات لمختلف المثيرات الاجتماعية، "صيرورات بناء واقع" على المستويات الرمزية موجّهة نحو أهداف اتصالية فهمية وكذلك لامتلاك المحيط الاجتماعي، المادي والمعنوي. (Fischer, 2020, pp. 182-183) يتضمن السؤال السؤال السوسولوجي في هذه المسألة في معناه الخاص تفرعات متعددة من حيث أسباب ونتائج هذه الإبعاد مع تعدد أنماط العدالة الاجتماعية تاريخيا في الفضاءات الاجتماعية وخاصة الحديثة. و نهدف من خلال هذه الورقة تقديم قراءة مركزة تتضمن هذه الإبعاد والتي تبني في مجملها في الأطروحة التالية: تبلورت الوظائف الأساسية للنظام المدرسي والشهادة في إطار الصيرورة التاريخية لتعيد تنظيم الآليات الداخلية أو المنطق الذي يحكم الفضاء الاجتماعي بحيث أصبحت المدرسة والشهادة أداة لتحقيق العدالة والإستحقاق ومحو التفاوتات في فضاء متفاوت وغير عادل. تتأسس بدورها هذه الأطروحة على مجموعة من المقدمات الأساسية للعناصر التحليلية المتطرق إليها وهي كالتالي:

- ✓ تعتبر التشكيلات الاجتماعية ككليات اجتماعية خاضعة لمجموعة العلاقات الجدلية الداخلية المتداخلة (Birnbau, 1970, p. 24) (Grawitz, 1999, p. 404)
- ✓ تنتظم العلاقات ما بين المواقع الاجتماعية في أشكال متعددة تاريخيا حسب المبادئ التي تقوم عليها أهمها: التفاوت ما بين المواقع *inégalités des places*، والتفاوت في الحظوظ *inégalités des chances* (Dubet, 2010)
- ✓ تتحدد البنية الاجتماعية انطلاقا من تقسيم العمل وتوزيع الموارد داخل المواقع غير المتكافئة.
- ✓ يعتمد احتلال المواقع الاجتماعية على مجموع القدرات والكفاءات والمهارات الموروثة أو المكتسبة ضمن إطار يكتسي طابع المؤسساتية المتفاوتة.

✓ يتبع نمط الحراك الاجتماعي في الثبات أو الانتقال داخل المراتبية الاجتماعية ما بين المواقع إلى منطقتين مختلفتين باختلاف التشكيلة الاجتماعية التاريخية.

1- المراتبية الاجتماعية داخل الفضاءات الاجتماعية التاريخية

تلازمت مع ظهور الإنسان ووجوده ظاهرة التمايز الاجتماعي *différenciation sociale* والتي تعبر عن تحديد الوضعيات الاجتماعية *positions sociales* والأدوار المرتبطة بها. تنتج هذه العملية عن الاختلاف بين الأفراد على أساس تباينات في الثروة والقوة والهيبة خلقت أنظمة من المراتبية الاجتماعية الهرمية *hiérarchie sociale*. تعتبر التفاوتات سمة أساسية في الوجود البشري فمنها ما هو طبيعي كالإختلافات الجسمانية القدرات البدنية (التي بدورها تخضع لتأويلات اجتماعية مختلفة) ومنها ما هو اجتماعي أخلاقي. إن دراسة الهرميات الاجتماعية داخل الفضاءات الاجتماعية يحيل ضرورة على مستوى السؤال السوسولوجي الأنثروبولوجي إلى تحليل كيفية تشكّلها، تنظيمها وتبريرها وشرعنتها. تنتظم الحياة الاجتماعية داخل مراتب هرمية مختلفة تتحكّم وتحدد بشكل مباشر وغير مباشر في العلاقات الفردية الجماعية على شكل قطبيات محركة: مهيمن/مهيمن عليه، أعلى/أسفل، شريف/وضيع...تهيكل على شكل كليات منظمة من المواقع المتفاوتة والمختلفة تنظم وتشرعن توزيع الإملاك والمهام المادية والرمزية (Ferréol & Noreck, 2010).

تركزت المساءلات المعرفية في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا على دراسة المجتمعات من حيث تركيبتها، صيورتها وألياتها. إذ يهتم علم الاجتماع ب"الدراسة المقارنة للمؤسسات الاجتماعية وذلك بالتركيز أكثر على أشكال المجتمعات التي أنتجتها الحداثة بتمظهراتها المتشعبة (Giddens, 1987). إذ أسفرت التحولات الكبرى على مستوى الفضاءات الاجتماعية التاريخية إلى تفكك وإعادة نشكل الأسس، الروابط والعلاقات الاجتماعية بنيوية. أنتجت هذه التحولات أشكالاً جديدة من المجتمعات. تجلت هذه الحركات الإنتقالية على مستوى الخطاب السوسولوجي (ماركس، دوركايم، فيبر) في مجموعة من المعالم المتشابهة: ظهور الرأسمالية والصناعة وعملية الإنتاج للأسواق الكونية. فالنظام الاجتماعي الحداثي هو رأسمالي في نسقه الإقتصادي وكذا مؤسساته؛ التقسيم المعقد للعمل على أساس التضامن العضوي في التركيبة الإقتصادية الصناعية؛ مسار العقلنة الذي توسع ليشمل كافة مناحي النشاط الإنساني المعبر عنه في التنظيمات الحديثة وأليات إشتغالها. فالحداثة متعددة الإبعاد على المستوى المؤسسي *institutional* وكل عنصر من العناصر التي تم الإضاءة عليها في الخطاب السوسولوجي لعب دوراً في إطار هذه الصيرورة (Giddens, 1990, pp. 10-12).

انبثق مفهوم المجتمع الحديث كظاهرة تاريخية في الغرب و تبلور تاريخياً في نموذج المجتمع الصناعي. بين الان تورين (Touraine, 2005, pp 75-78) أنه ليس لفكرة المجتمع من أساس غير الاجتماعي، بعد ان انتهى النظام الديني للعالم و حلت محله الدولة. احتل الإقتصاد (الرأسمالي) و أشكال التنظيم العقلاني صميم الحياة الاجتماعية خلال اربعة قرون من العمل التاريخي، تأسست خلالها فكرة محورية نفسها و هي أن الحياة الاجتماعية تمتلك غاياتها الخاصة و أن اندماجية المجتمع و عقلانية اشتغاله و قدرته على التكيف مع التغيرات هي الأداة الأساسية لقياس ما هو خير و ما هو شر (Touraine, 2005, p. 102). تبلورت بعد ذلك إذن

رؤية و تنظيم خالصين للحياة الإجتماعية ، حيث اكتسب المجتمع خاصيته الإجتماعية الخاصة من حيث قدرته على الخلق و التأكيد الذاتيين (Touraine, 2005, p. 102)

يشير مفهوم المرتبية الإجتماعية إلى التمايز الوظيفي الهرمي وفي نفس الوقت المؤسس على معايير متعددة ومختلفة من مجتمع لآخر . إذ تشهد كل المجتمعات سواء كانت عبودية، طائفية، طبقية توزيعا متفاوتا للموارد. إن مفهوم المرتبية الإجتماعية في علم الاجتماع يطلق على الدراسات التي تهتم بدراسة التفاوتات الإجتماعية المنظمة بين جماعات الأفراد التي تنتج عن الصيرورات الإجتماعية والعلاقات الإجتماعية. ويعتبر الإهتمام المحوري في الماكروسوسيولوجي (Marshall, 1994, p. 512). ويحيل هذا المفهوم إلى الصورة الجيولوجية لتواجد ثابت ومتواصل أو غير متواصل لطبقات ذات صبغة سلمية على مستوى منحى عمودي (Savidan, 2018)

.. تهدف دراسات المرتبية الإجتماعية إلى تحقيق ثلاثة أهداف وهي:

- الأول تبيان مدى هيمنة أنظمة المكانة والطبقية على المستوى المجتمعي الكلي وكونها أساسا لأنماط الفعل الإجتماعي.
 - الثاني هو تحليل البنى الطبقة والمكانة ومحددات تكوينها.
 - أخيرا تسجيل وتوصيف الشروط الإجتماعية للتفاوتات، فرصها ونتائجها. إضافة إلى الطرق التي يحافظ بها الجماعات على حدود المكانة والطبقات (الغلق) والسؤال حول الإستراتيجيات الفردية والجماعية للحفاظ على أو الحصول على الإمتيازات التي تفتح مجال الإلتماءات الطبقة. (Savidan, 2018) (Marshall, 1994, pp. 512-513)
- على المستوى العام تحيل المرتبية الإجتماعية إلى الأشكال المختلفة المتعلقة بالطبقات والمكانات، تكوينها واعتبارها كمفاتيح أساسية في فهم عملية الدمج الإجتماعي social integration بمعنى آخر مدى كون الروابط والعلاقات الإجتماعية cohesive أو divisive ونتائج ذلك على النظام الإجتماعي social order (Marshall, 1994, pp. 512-513)
- تتھكل الفضاءات الإجتماعية انطلاقا من مجموع العناصر السابقة تبعا للتمايزات الكبرى ومعاييرها .تختلف تنظيمها وكيفيةها باختلاف المراحل التاريخية، وتخضع لعملية التأويل الإجتماعية. تتلخص الأبعاد المفھمية للمرتبية الإجتماعية لدى S. Bosc على بعدين أو مستويين أساسيين في الأدبيات السوسيولوجية:
- بالمعنى العام يشير إلى مجموع أنساق التمايز الإجتماعي التي تقوم على أساس التوزيع المتباين للموارد والمواقع داخل المجتمع.

بالمعنى الضيق يقتصر المفهوم على التحليلات التي تنظر أو تفسر الكلّ الإجتماعي كمجموعة من الطبقات المتدرجة هرميا strates hierarchisées انطلاقا من معايير متعددة كالدخل، المكانة المهنية، علاقات السلطة والهيبة prestige. تختلف هذه المقاربة للمرتبية عن النموذج الماركسي، التي تنطلق من مفاهيم: اليمنة والتضاد، وذلك بتركيزها على التدرج النظم للمواقع (من الأعلى إلى الأسفل) ، تعدد الجماعات، غياب الصراعات الكبرى ما بينها وفي حالات محددة حول الطابع الضروري والطبيعي لهذه التقسيمات (Dollo, Lambert, & Parayre, 2017, pp. 358-360).

ويعود الفضل على فيبر (1922) في الإضاءة على الطابع المتعدد الإبعاد للمراتبية الاجتماعية و الإستقلالية الجزئية ما بين هذه الإبعاد: الإقتصادية، المكانة statuaire ، السياسية (Boudon, Besnard, Cherkaoui, & Lecuyer, 2005, pp. 427-428)

يتركز التقسيم الفيبيري للمراتبية على التقسيم الثنائي ما بين:

- مجتمعات المكانة status-based (المجتمعات التي تقوم على مبدأ النسب مثل الطوائف والإقطاع أو مجتمعات الرقّ أين تكون التفاوتات مقنّنة)
 - مجتمعات الطبقة class-based ذات الطابع القطبي والسائل fluid (التي تختص بها المجتمعات الحديثة) أين يكون للأُنجاز دورا هاما وتأخذ الإختلافات الإقتصادية ثقلا معتبرا ويأخذ التفاوت فيها طابعا لا شخصيا impersonnel .
- يشكل تكوين المكانة والتكوين الطبقي القطبين الأساسيين في عملية الدمج الاجتماعي social integration أي الطريقة التي يترابط فيها الأفراد داخل المجتمع.

إن البناء الاجتماعي في التصور الفيبيري يتكون هرميا من ثلاثة مراتب اجتماعية بالرغم من كونها مترابطة:

- الطبقات الاجتماعية وتشير الى البعد الإقتصادي
 - جماعات المكانة وترتبط بالشرف الاجتماعي والهيبة prestige .
 - الحزب ويحيل إلى البعد الثالث للمراتبية وهو البعد السياسي. (Dollo, Lambert, & Parayre, 2017, p. 360)
- أدخل فيبر (الذي ركّز بشكل أقلّ على علاقات الإنتاج) مجموعة متعددة من مبادئ الهرمية ودرجات التعريف للطبقات الاجتماعية وبصفة عامة للمراتبية الاجتماعية:

- المستوى الإقتصادي: ويمثل الوضع داخل السوق وفرص الحصول على أملاك، فرص الحياة التي تُعرّف وضعيّة الطبقة situation de classe .
- الرتب والدرجات الاجتماعية التي تُحيل إلى هرميات المكانة، الهيبة والشرف الاجتماعي (التي لا ترتبط بشكل ألي بوضعية الطبقة. إذ أن أنماط الإستهلاك قادرة على إحداث تمييزات داخل نفس الطبقة بالمعنى الإقتصادي).
- النظام السياسي: الذي لا يتقاطع حتما مع البعد الإقتصادي ويؤدي إلى أشكال هرمية تملك منطقتها الخاص. (Savidan, 2018, p. 243)

2- المجتمعات الحديثة الخصائص والميكانيزمات

تأخذ صيرورة التغيرات الاجتماعية صيغة أشكالا مختلفة للتمايز والتقسيم الهرمي المراتبي بناء على معايير: الثروة، النسب، السلطة، الهيبة تتبلور في أشكال وجودها وتتمظهر على شكل مراتب اجتماعية هرمية ضمن إطار تشكيلات اجتماعية تاريخية.

تتقاطع عمليات تصنيف المجتمعات في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في التمييز بين أربعة أنماط من المراتبية الاجتماعية هي نظام الرق slavery، نظام الإقطاع estates، نظام الطائفة caste و نظام الطبقة الاجتماعية social class system. (Bottomore, 2010, p. 185)

تواجد نظام الرق في أزمنة و أمكنة مختلفة كمجتمعات العالم القديم خاصة مجتمعات اليونان و روما في الولايات المتحدة الأمريكية في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر . تأخذ العلاقة في هذا النظام بين السيد maitre و العبد esclave طبيعة علاقة إقتناء possession و ملكية propriété . تنقسم التركيبة الاجتماعية في هذا النظام إلى فئتين هما فئة الرقيق و فئة السادة. تتمثل الخاصية المميزة لنظام الرق كونه نظاما متطرفا من أشكال التفاوت تحرم فيه جماعات معينة حرمانا كاملا من الحقوق. (Bottomore, 2010, pp. 185-186)

نظام الطائفة caste ويقوم هذا النظام على الأسس الدينية . وتترتب عليها نتائج ملزمة على مستوى الممارسات الاجتماعية. ويشير مفهوم الطائفة caste (كلمة من أصل برتغالي) إلى النقاء pur . أي في محور النظام الاجتماعي هناك مقابلة مؤسسة على شكل مصفوفة اجتماعية بين النقي وغير النقي pur/impur تتوافق معها مجموعة من الطقوس تنتج نظاما لتصنيف الأفراد (Ferréol & Noreck, 2010)

النظام الإقطاعي الذي ساد في القرون الوسطى في أوروبا ويتميز بثلاثة خصائص أساسية : في المقام الأول كان معرّفا تعريفا قانونيا بحيث أن كل فئة تمتلك مكانة بالمعنى الدقيق كمجموعة من الحقوق والواجبات المقننة، الإمتيازات والإلتزامات . ثانيا: تمثّل هذه الفئات شكلا واسعا من تقسيم العمل باعتبارها تمتلك وظائف محددة: النبلاء يدافعون عن الكل، رجال الدين يصلّون للكل والشعب commons يوَقّر الغذاء للجميع . ثالثا تشكّلت الإقطاعات كجماعات سياسية (تشكل هذه الخصائص نموذج مختزل) (Bottomore, 2010, pp. 189-190)

النظام الطبقي و ظهر مع ولادة المجتمعات الرأسمالية الحديثة في أوروبا بعد انهيار النظام الإقطاعي. ويستخدم مفهوم الطبقات الاجتماعية على مستويين من التعريف: المستوى العام ويشير إلى جماعة أفراد تتميز بخصائص أو سلوكيات متشابهة مشتركة قابلة للمقارنة؛ أما على المستوى الضيق فيقابل مفهوم الطبقة مع الطائفة caste ، الدرجات ordres (التي تتميز بالتداول الموروث والحراك الاجتماعي الضعيف أو المنعدم (Boudon, Besnard, 2005, p. 32) ويرتبط مفهوم الطبقات الاجتماعية بماركس ارتباطا وثيقا حيث جعله في قلب تحليلاته للمجتمع الرأسمالي في القرن 19. تقترن الطبقات الاجتماعية بعلاقات الإنتاج داخل ثنائية تمييزية بين مالكي وسائل الإنتاج ومالكي قوة العمل، فرأس المال هو جوهرها علاقة اجتماعية rapport social يسمح للطبقة المالكة لوسائل الإنتاج باستغلال قوة عمل البروليتاريا لإنتاج فائض القيمة: فالعلاقة التي تربط بين الفئتين هي علاقة استغلال واغتراب (Savidan, 2018, p. 242) . يعرف Gurvitch الطبقة الاجتماعية بكونها "تمتلك خصائص أساسية : تعدد وظائفها ، عدم تلائمها مع بعضها ، طابعها المميز الذي يمنع استيعابها من طرف المجتمع الكلي ، نزوعها نحو التشكل الشديد و أخيرا خاصية التوحد الجمعي عن بعد " (Gurvitch, 1967, p. 199) فالطبقات الاجتماعية هي تجمعات موجودة فعلا de fait و ليست ضرورة de droit فليس بالضرورة أن توجد الطبقات في كل أنواع المجتمعات وهي أيضا متعددة الوظائف و يتجلى ذلك خاصة في وظائفها الإقتصادية . ويؤكد Gurvitch على أن "الطبقات الاجتماعية تفرض نفسها خارج التقسيمات الرسمية بدون الإخذ بعين الإعتبار الترتيبات القانونية المفروضة ولا الحواجز المرتبطة

بالمنظماتوهي تتكون بدون تدخل إرادة الأفراد المكونين لها أو أية إرادة فوقية " (Gurvitch, 1967, p. 200).

يظهر التفاوت كل أنظمة المراتبية في الثروة والقوة والهيبة كميزة أساسية ومحورية للحياة في معظم المجتمعات، يظهر أيضا في توزيع الوضعيات والمواقع المرغوبة التي تكون يحتلها أصحاب 'الكفاءات العالية'، و تكون في هذه الحالة بعض الأعمال أهم من أخرى بحيث تتطلب هذه الأعمال نوعا خاصا من التعليم والتدريب و يرتبط بها مكافآت اقتصادية و هيبة عالية (الطيب و الإطار السامي) . تختلف عملية التقدير المرتبطة بالهيبة انطلاقا من منظومات قيمية مأسسة تعكس الأطر الاجتماعية وركائزها، يعتمد هذا التقدير في الحالات المختلفة على مجموعة من العوامل منها : مدى أهمية و رمزية الوظيفة و العوائد الاقتصادية منها لكل من الفرد و المجتمع، مدى ندرة الكفاءة والمهارة .

قدّم Dubet رؤية ووجهة تتضمن نمذجة لأنظمة التفاوتات الاجتماعية régimes d'inégalités التي تأسست بالمرحلة التاريخية . إذ تنطلق المسألة الاجتماعية التاريخية للتفاوتات الاجتماعية من طبيعة الأساس الذي تقوم عليه ومن حيث طبيعة العلاقات الاجتماعية ومن حيث نتائجها. ويمكن تحديد نظامين أساسيين إضافة إلى نظام ثالث (Dubet, 2019) :

- الأول يميز الفترة التاريخية إلى ما قبل الثورة الفرنسية حيث توطنت أشكال التفاوت التي تتميز بكونها مرتبطة بأفراد في حد ذاتهم متفاوتين (التفاوت بين الفلاح والسيد مثلا هو تفاوت طبيعي) . اختفاء هذا الشكل من التفاوتات انطلاقا من نهاية القرن 18 (مع ملاحظة أنه لا تزال توجد آثار تتمظهر فيها هذه التفاوتات)

- الثاني هو نظام التفاوتات الطباقية inégalités de classes حين دخلت المجتمعات مرحلة يكون فيها كل الأفراد متساويين في المبدأ مع وجود مواقع اجتماعية غير متساوية انطلاقا من تقسيم العمل . وبالتالي ستمظهر التفاوتات كتنافوات طبقية ensemble sociaux de classes (العمال، الفلاحين، البورجوازيين) يتم تمثيلها وادراكها انطلاقا من الإلتماءات الطباقية.

إضافة الى هذين النظامين تبلور نظام جديد يسميه Dubet نظام التفاوتات المتعددة يتميز مثلا على المستوى المدرسي في ان الكل أصبح يدخل للجامعة ولكن ليس نفس الشعبة ولا نفس الجامعة حيث تأخذ هذه التفاوتات الجزئية المتعددة في كل أشكال الأشياء التي يمكن امتلاكها . يتميز هذا النظام بكونه لا يعرف حركيات انتقال كبيرة ولكن هو خليط من الشعور بالاستقرار والألمن .

وتعتبر أنظمة التفاوتات الاجتماعية مبادئ مهيكلة principe de structuration داخل المجتمع إذ تفترض الحياة الاجتماعية على المستوى الجدلية النفسية-الاجتماعية صورة أو تمثلا منظما للعالم الاجتماعي الموضوعي تأخذ أهميتها في أنظمة التفاوتات من خلال عملية تكوين نظام تمثل المجتمع لنفسه . وتشهد أنظمة التفاوتات الاجتماعية تحولات على مستوى تحسّس بشكل أكبر للتفاوتات.

3 - النظام المدرسي و مبدأ الإستحقاق

تختلف المسارات داخل النظام المدرسي من حيث وظائفها وألياتها ومخرجاتها. إذ يقوم من خلال عملية التكوين بتجسيد عمله في شكل 'شهادات'، تأخذ طابع الإعتراف داخل الفضاء الاجتماعي، تختلف قيمتها باختلاف المستوى داخل الهرمية المدرسية (ابتدائي، متوسط، ثانوي، جامعي). ويعتبر المستوى الجامعي الأعلى - وهو تعليم غير الزامي - . يحصل الطلبة الذين يتابعون هذا التكوين وينجحون في الإختبارات على 'شهادة جامعية' تفتح مباشرة بابا نحو مهنة محددة (طبيب كمثل أو مهندس أو معلم....) أو تزيد من حظوظ الدخول إلى مهن ذات تعويضات مادية واعترافات اجتماعية هامة (Savidan, 2018). تتمحور الرهانات الفردية لظاهرة التمدرس في الحصول على عمل والصعود في السلم الاجتماعي (الحراك التصاعدي) . فالحصول على شهادة يعتبر 'ضرورة' للولوج الى المواقع الأكثر طلبا داخل الفضاء الاجتماعي. يرتبط الموقع الذي يحتله الفرد داخل تقسيم العمل في المجتمعات الحديثة ليس بالخصائص الموروثة منذ الولادة ولكن بالكفاءات والمهارات المكتسبة وبشكل عام بالإستحقاق الشخصي لكل فرد. ويقوم المستوى الدراسي (الذي تجسده الشهادة) بترجمة هذا الإستحقاق . وتقتزن نوعية النشاط المهني بنوعية التكوين الذي تلقاه الفرد (Duru-Bellat & Van Zanten, 2012).

يشير مفهوم الإستحقاق في المقام الأول إلى خاصية أو مجموعة من الخصائص تستدعي موقفا / حكما تقييميا إيجابيا من طرف الآخرين أو منح مكافأة (مادية أو غير مادية) للفرد المستحق. وفي المقام الثاني يعين الإستحقاق العلاقة التي تربط خاصية معينة بمكافأتها. إضافة إلى الميزة الشخصية لمفهوم الإستحقاق والقيمة الإيجابية والمعيارية يجب إضافة التركيبة الثلاثية: يقوم الإستحقاق على الربط بين (أ) شخص معين (ب) خاصية أو مجموع ميزات (ج) عملية معالجة أو تقييم (أ) مبررة عن طريق امتلاك (أ) ل الخاصية (ب). (Savidan, 2018, p. 1086)

يعتبر الإستحقاق من جهة أخرى على أنه بناء اجتماعي معرفي ويصنّف كنظام *meritocratie* مكوّن هام للمؤسسة المدرسية في المجتمعات الديمقراطية ويشير إلى هذا الجمع بين المساواة الشكلية والإنتقاء التي تؤدي إلى استحقال أفراد ومسؤولية آخرين عن الإختلافات الموضوعية الملاحظة والمسجلة في المسارات المدرسية والحصول على الشهادات . وبهذه الطريقة يؤدي الإستحقاق وظيفة إيديولوجية وذلك بتقديم تفسير شرعي اجتماعيا للفتاوتات المدرسية التي تؤدي بدورها إلى مواقع اجتماعية ومهنية متفاوتة.

ويجب التمييز بين المفهوم العام للأستحقاق الذي يشير إلى مبدأ أن المجتمع الذي يكون عادلا *juste* هو المجتمع الذي يمنح لكل فرد المكان الذي يستحقه انطلاقا من القدرات التي يمتلكها وجهده عوضا عن مكان موروث. فالإستحقاق المدرسي يحيل بشكل خاص إلى المبدأ المزدوج باعتراف المدرسة بأستحقاق كل فرد (البعد أ) و باعتراف المجتمع بالشهادة.

تشكل المدرسة حلقة انتقال تمنح الأدوات للنمو والعدالة الاجتماعية. وأخذت عملية الإستمرارية والإمتداد الزمني في المسارات الدراسية (التي فرضت نفسها كسياسات) أبعادا متعددة النتائج. تقوم المدرسة والشهادات بإعطاء قبضة على المالات والإفاق المهنية الفردية والمعاني الاجتماعية الكبرى التي تحملها بالنسبة للدولة. إن هذه القبضة تعتبر الخاصة المحورية للمجتمعات الحديثة. وذلك بهدف توزيع الفئات الشابة وادخالها وموقعها اجتماعيا في

التقسيم الاجتماعي للعمل والمهن المختلفة المرتبطة بها.. تتكلف المؤسسة المدرسية بمهمة تعريف والبحث والتنقيب عن و تنمية وتممين الإستحقاق عن طريق منح الشهادات (Duru-Bellat, 2006, p. 7) . إن التأكيد على النموذج العادل مع التعقيد في تقسيم العمل صعبت مهمة تسيير هذين الصيرورتين إضافة إلى عدم قبول التفاوتات التي تنتج عنها.

تكرست فكرة الإستحقاق تدريجيا وفرضت نفسها كضرورة و كأيدولوجية مؤسّسة للمجتمعات الديمقراطية. تراوحت فيها المساواة السياسية مع المساواة في الفرص (تكافؤ الفرص) وليس في المساواة بين المواقع الاجتماعية. (Duru-Bellat 2006, pp. 7-8).

انطلاقا من عناصر استمدت من فلسفة مفهوم العدالة يقدم Dubet تصورا يمثل فيه بشكل نموذجي التصور العام للصيرورة التي تجسد العلاقة في مضامينها المحورية ووظيفة النظام المدرسي . تتضمن هذه الرؤية وجود ثلاثة دوائر أساسية تنتقل بينها عملية توزيع من دائرة إلى أخرى:

1. الدائرة الأولى وهي دائرة ما قبل المدرسة التي تتضمن توزيعا متفاوتا للأفراد على أساس طبيعي (جنس، قدرات جسمية) خاضعة لمحددات بيولوجية وراثية إضافة إلى تفاوتات اجتماعية مبنية قبلها.
2. الدائرة الثانية (حيث تقوم المدرسة بمحو التفاوتات الموجودة في الدائرة الأولى وتوزع الأفراد بداخلها للدخول في منافسة تتم فيها عملية الإختيار والانتقاء.
3. الدائرة الثالثة وتمثل المواقع الاجتماعية على مستوى تقسيم العمل في الهرميات المهنية حيث تتوزع المخرجات من الدائرة الثانية فيها .

في المقام الأول تمثل هذه الصورة نموذجا مثاليا على المستوى الوقائع الاجتماعية التاريخية لم يتحقق بهذه الكيفية إذ لا يمكن محو التفاوتات الموجودة في الدائرة الأولى لأسباب بنيوية كلية تتعلق بالآليات التي تحكم الحركات التاريخية. أما في المقام الثاني ففكرة الإستحقاق والإعتقاد بها اجتماعيا أي أن الإستحقاق هو أو سيكون حتما يُكافئ، هي "وهم ضروري" بالنسبة للمدرسة (Brown, Duru-Bellat, & Van Zanten, , 2010). لقد بينت الأعمال التي قام بها بورديو حول النظام المدرسي الروابط القوية بين المعارف والكفاءات والمهارات التي تمررها المدرسة و تتمنها والإستعدادات الدائمة والرساميل الثقافية التي تمتلكها الفئات العليا في المراتبية الاجتماعية إضافة الى استخدام الشهادات من طرف هذه الفئات في اختيار المشاهدين لهم في المواقع الاجتماعية الهامة. كذلك أكدت الدراسات الماركسية (Bowles·Baudelot) على الدور الذي تلعبه المدرسة في إعادة انتاج 'علاقات الإنتاج' بناء على الإرتباط ما بين المناهج، الظاهرة والمستترة، للنظام المدرسي ومجموع أنتظارات المستخدمين.

4 الحراك الاجتماعي الجمود والسيولة

يعرف الحراك الاجتماعي على أنه عملية الانتقال أو الدوران ما بين الفئات الاجتماعية سواء على المستوى الفردي (انتقال فردي) او انتقال جماعة (انتقال جماعي) (Boudon, Besnard, Cherkaoui, & Lecuyer, 2005) (Dollo, Lambert, & Parayre, 2017) أي يحتوي على مستويين من الحراك بالمعنى السوسولوجي: انتقال الفرد (الحراك الفردي) أو انتقال الجماعة (انتقال جماعي) من فئة اجتماعية الى أخرى. ويعتبر تحديد

Sorokin أول المحاولات الهامة في تعريف ودراسة الحراك الإجتماعي، ويحدد الحراك الإجتماعي لديه "كعملية انتقال لفرد من موقع إجتماعي إلى آخر" وتعرف المواقع الإجتماعية على أنها مجموع العلاقات التي تربط الفرد بكافة الجماعات الإجتماعية والأفراد المكونين لها ينتج عن ذلك الصورة الهندسية للفضاء الإجتماعي انطلاقا من مجموعة من العلاقات والإبعاد (Sorokin 1927, pp. 6-7)، أما على مستوى أنماطه فيوجد نمطين أساسيين للحراك الإجتماعي وهما الحراك الإجتماعي الأفقي و الحراك الإجتماعي العمودي. فالحراك الأفقي يعني انتقال الأفراد من جماعة أو طبقة اجتماعية إلى أخرى على نفس المستوى مثال ذلك تحول فرد من مصنع إلى آخر في نفس المكانة المهنية. أما الحراك العمودي فيعني انتقال الأفراد من طبقة أو فئة إجتماعية إلى أخرى وقد يكون هذا الحراك تصاعديا أو تنازليا.

يميز علماء الإجتماع ما بين الحراك داخل الجيل الواحد *intragénérationnelle* و هو انتقال الأفراد من فئة إجتماعية إلى أخرى في نفس الجيل أما الحراك ما بين الأجيال *intergénérationnelle* فهو حركة الأفراد من الجماعة أو الطبقة الإجتماعية التي ينتمي أباؤهم أو أجدادهم إلى جماعة أو طبقة إجتماعية أخرى. تحاول الأبحاث التي اتخذت من الحراك موضوعا لها الإجابة عن مجموعتين أساسيتين من الأسئلة الأولى تتعلق بالعوامل التي تحدد الحراك أما الثانية فتتركز على نتائج الحراك عمليات الانتقال ما بين المواقع أفقيا أو عموديا على أفعال وسلوكات الأفراد (Boudon, Besnard, Cherkaoui, & Lecuyer, 2005, pp. 151-152).

يجنح أي مجتمع إنتاج ميكانيزمات محددة ترمي إلى توجيه الأفراد المكونين له من مراكزهم الإجتماعية الأصلية العائلية إلى مراكز إجتماعية معينة ممكنة. ترتبط بالعمليات التي تمارسها مؤسسات الإنتقاء، هذه المؤسسات تختلف بدورها حسب نوع المجتمع و الفترة التاريخية، فيلعب الجيش والكنيسة في المجتمعات العسكرية مثلا (بالمعنى لسان سيمون وهربرت سبنسر) الدور المحوري في تحديد عملية الحراك، أما في المجتمعات الصناعية الحديثة فالمدرسة و العائلة هما اللتان تلعبان الدور الأساسي في تحديد الآليات التي تحكم عملية الحراك.

يلعب النظام التعليمي دورا كبيرا في المجتمعات الصناعية الحديثة، بوصفه نظاما للتكوين و الإنتقاء. إن أي نظام مدرسي يرتبط بمجموعة تمثلات جمعية تمتد جذورها إلى النظام الإجتماعي ككل. تقوم هذه التمثلات بالتمييز بين المسارات الدراسية النبيلة و المسارات التي تعتبر غير نبيلة (الطب و الهندسة و المدارس العليا ذات القيمة الرمزية تمثل المسارات النبيلة، في مقابل التخصصات الأدبية و الإنسانية التي تعتبر مسارات غير نبيلة...). "إن المجتمعات التقليدية تتميز بدرجة عالية من التوازي *homologie* بين البنى العائلية و البنى الإقتصادية والإجتماعية؛ ينتج عن هذا أن المكانة العائلية هي المحدد الأساسي للمكانة الإجتماعية. بالمقابل في المجتمعات الصناعية المكانة الإجتماعية للفرد ليست مفروضة *imposé*؛ إنها مكتسبة و منجزة من طرف الفرد نفسه. نستنتج من ذلك أن تطور المجتمعات الصناعية يؤدي إلى ارتباط وثيق بين المكانة الإجتماعية والكفاءات المكتسبة و بالتالي ضعف العلاقة بين المكانة و الأصل الإجتماعي (Boudon, 1979, p. 29)

تأخذ العلاقة بين الشهادة الحراك الإجتماعي والمراتبية الإجتماعية علاقة تداخل ضمن إطار كلية يعكس التركيبة الإجتماعية. إذ يعتبر التكوين المحور وحلقة الدوران الأساسية التي تنهيكل حولها عملية الدمج. وبناء على ذلك تتبلور العلاقة الأساسية ما بين نظام المراتبية والحراك على مستويين أساسيين: الأول يحيل إلى إضفاء طابع المرونة

والحركية في الإنتقال ما بين المواقع (وهذه فكرة مفصلية في تحليلات المجتمعات الديمقراطية الحديثة عند Tocqueville في جعل مبدأ تكافؤ الشروط *égalité des conditions* المبدأ المحرك في الكلية الاجتماعية) تقوم المدرسة بدور مفتاحي في الحراك الاجتماعي ما بين الأجيال أي في عملية الإنتقال ما بين المواقع الاجتماعية عند الإباء والأبناء. (Duru-Bellat & Van Zanten, 2012). فكل المجتمعات البشرية تتضمن مواقع ووظائف (مراتبية اجتماعية هرمية) تختلف في قيمتها ومردودها وأن الأفراد في قلب إمكانية احتلالها . وتعتبر قضية أسية مسألة ان كل فرد يستطيع التأمل في كل موقع وكل وظيفة اجتماعية. النقطة الثانية هي أن تساوي الفرص لا يتعارض مع المراتبيات الاجتماعية الهرمية وإنما يهتم أساسا بالخاصية العادلة أو لا لشروط الحراك الاجتماعي لأفراد داخل هذه الهرميات (نقد أي آلية لإعادة الإنتاج المراتبيات الاجتماعية الهرمية). (Savidan, 2018)

ازدادت أهمية ودور النظام التعليمي المساعدة على الإرتقاء في السلم الاجتماعي و الإنتقال من فئة أو طبقة إجتماعية إلى أخرى، إذ انتقلت الحركيات ما بين المواقع والهرميات من حالات الجمود والثبات وإعادة الإنتاج إلى حالة السبولة. وفي هذه التركيبة يفتح النظام التعليمي أبواب المواقع الهرمية المهنية ذات العوائد المادية والرمزية أمام الأفراد المتساوين. فالتعليم يعد بمثابة مصعد إجتماعي *ascenseur* في المجتمعات الصناعية الحديثة .

خاتمة

تتميز المقاربات التحليلية للوقائع التاريخية المميزة على مستوى النموذج المثالي المعروض بعدم التطابق و بإعادة السؤال في شكل ووظائف وأوهام مبدأ الإستحقاق ومساءلة تخدم جزئيا هذا الأساس المتحكم في توزيع الأفراد في تقسيم العمل وتحقيق فكرة العدالة ومحو التفاوتات الاجتماعية عن طريق فتح التعليم للجميع فالمعطيات على المستوى الإمبريقي تشير إلى انتقال عملية المنافسة داخل النظام المدرسي إلى مستوى التمييز بين الشعب الأكثر ربحية (ندرة الشهادة) والشعب الأكثر انتشارا على شكل علاقة تضخم اقتصادية ويمكن مجازا وصف الشهادات على أنها "نظارات ليلية" في مكان لم يعد فيه الليل موجودا. من جهة ثانية طالما أن المجتمعات متفاوتة فأن المدرسة لا يمكنها الهروب من وزن وتأثير هذه التفاوتات " (Duru-Bellat & Dubet, 2020).

- قائمة المراجع:

1. Birnbaum, P. (1970). *sociologie de Tocqueville*. France: PUF.
2. Bottomore, T. (2010). *sociology: A guide to problems and literature*. UK: Routledge.
3. Boudon, R. (1979). *L'inégalité des chances* . Paris: Armand Colin.
4. Boudon, R., Besnard, P., Cherkaoui, M., & Lecuyer, B. P. (2005). *Dictionnaire de sociologie* (éd. 2). France: Larousse.
5. Bourdieu, P. (1989). *la noblesse d'Etat: grandes écoles et esprit de corps*. France: Minuit.
6. Bourdieu, P., & Passeron, J. C. (1964). *les héritiers les étudiants et la culture*. France: Minuit.

7. Brown, P., Duru-Bellat, M., & Van Zanten, A. (2010). La méritocratie scolaire. Un modèle de justice à l'épreuve du marché. *Sociologie*, 161-175.
8. Dollo, C., Lambert, J. R., & Parayre, S. (2017). *Lexique de sociologie* (éd. 5). France: Dalloz.
9. Dubet, F. (2019). *le temps des passions tristes*. France: Seuil.
10. Dubet, F. (2010). *Les places et les chances: repenser la justice sociale*. Paris: Seuil.
11. Duru-Bellat, M. (2006). *L'inflation scolaire: les désillusions de la méritocratie*. France: Seuil.
12. Duru-Bellat, M., & Dubet, F. (2020). *l'école peut-elle sauver la démocratie*. France: Seuil.
13. Duru-Bellat, M., & Tenret, E. (2009). L'emprise de la méritocratie scolaire: quelle légitimité ? *Revue française de sociologie*, 50 (2), 229-285.
14. Duru-Bellat, M., & Van Zanten, A. (2012). *Sociologie de l'école* (éd. 4). Paris: Armand Colin.
15. Ferréol, G., & Noreck, J. P. (2010). *Introduction à la sociologie* (éd. 8). Paris: Armand Colin.
16. Fischer, G. N. (2020). *les concepts fondamentaux de la psychologie sociale*. Paris: Dunod.
17. Giddens, A. (1987). *Social theory and modern sociology*. California: Stanford university press.
18. Giddens, A. (1990). *the consequences of modernity*. UK: Polity Press.
19. Grawitz, M. (1999). *Lexique des sciences sociales* (éd. 7). Paris: Dalloz.
20. Gurvitch, G. (1967). *traité de sociologie* (éd. 3). France: PUF.
21. Marshall, G. (1994). *the concise oxford dictionary of sociology*. UK: Oxford University Press.
22. Savidan, P. (2018). *Dictionnaire des inégalités et de la justice sociale*. Paris: Presses Universitaires de France.